

مقدمة الكتاب

الشاعر هنري زغيب

عجبتُ له يتأني بهذا الصبر الجلود: قارئاً مدققاً، مستمعاً (بل مصغياً) رهيماً، وبَحَاثَةً طُلَعَةً.

عجبتُ له يمتدُّ جسراً متابعاً أميناً أكثرَ من ربع قرنٍ مسرحيٍّ رحبانيٍّ يُمسك طرفه مع "موسم العز" (1960) ويصله بالطرف الآخر مع "بترا" (1977)، ويظلُّ في جميعها على التأني نفسه والدقة ذاتها والسرد عينه، فلا طولُ المساحة الرحبانية أتعبه، ولا تقشيرُ الإبداع المسرحيِّ الرحبانيِّ أوهن أمانته لِحبه الرحبانيِّ الذي كان، أولاً وأخيراً وبين بين، دافعهُ الرئيس إلى هذا العمل الموسوعي الرائع.

مفيد مسوح يلتقي بحلم راودني (متلقياً في البدء ثم صديقاً لعاصي ومنصور متابعاً إياهما عن قُرب) طوال سنواتٍ من متابعتي الأعمال الرحبانية، ثم طوال سنةٍ كاملةٍ من تنسيقي وإشرافي على إصدار المجموعة المسرحية الكاملة (عن منشورات "ديناميك غرافيك"). والحلم: أن يجيء يوماً من يقدم النص الرحباني إلى القراء، بعدما كان هو قدّم نفسه بنفسه إلى المستمعين والمشاهدين. والحلم ليس في مُجرّد تقديم النص وحسب (كما فعلتُ بإصداري المجموعة المسرحية الكاملة، فهذا عملٌ حياديٌّ لا فضل كبيراً فيه) بل في الإضاءة عليه سرداً وتفصيلاً وقراءةً نقديةً مُحبّةً تُبرز ما فيه من ثنايا وجماليات.

هذه الإضاءة (أخيراً!!!) جاء من تولاها: مفيد مسوح، في هذا السُفر المعمق.

فكيف مَهَجَ بَحْتَهُ؟

من حيث الإطار:

وما يُميّز عملَ مسوح عما سبقه من إصداراتٍ (وما أكثرها!!!) ودراساتٍ عن النص الرحباني، أن المؤلف لم يتناول هذا النص بكمّ العام (وهو يبقى عاماً مهما فُصّل) بل بتفصيله الواضح عملاً عملاً، وهو ما لم يسبقه إليه (بهذا التفصيل الإفرادي الكرونولوجي) باحثٌ بعدُ (وقد لا يقوم به أحدٌ سواه، لعمق ما أعرف من الصعوبة الفائقة في عمل بهذا الشكل).

هنا فُرادة مفيد مسوح، وهنا فضله الكبير في الإضاءة على الإرث الرحباني.

ولو انّ مُدَقِّقاً قام (ولو بفضل علمي بسيط) فأحصى حجم كل دراسة لكل عمل على حدة، لوجد أنّ لكل دراسةٍ عن عملٍ مساحةً موازية تقريباً مساحة كلِّ عملٍ آخَر.

من حيث الشكل:

(1) حين اتصل بي مفيد مسوح (وأنا لم ألتق بعدُ به حتى كتابة هذه السطور) يسألني إمكان الإشراف على إصدار هذا السُّفر، أصرَّ على إصداره في لوتين كي يَنْفَر النص الرحباني بلون مغاير عن لون النص البحثي. وفي هذا احتراماً منه عالٍ ونبيلٌ للنص الرحباني الذي يستشهد به في سياق بحثه.

(2) تعمَّدتُ – وأنا أشرف على صدور هذا السُّفر – ألاّ أَدْخَلَ في طريقة الكتابة التي اعتمدها المؤلف لينقل الى الورق النص الرحباني المسموع. لم أشأ التعديل في طريقة كتابته النصَّ العاميَّ اللبناني الذي لم يعرف بعدُ كتابةً موحَّدةً لقاموسه وكلماته (وحين يأتي من يضع قواعدها اللغوية المنطقية تصبح لغةً موحَّدة). مع أنني -في إصداري المجموعة الرحبانية المسرحية الكاملة -أدعي أنني قاربتُ كتابةً للعامية اللبنانية هي الأقربُ الى منطق الكتابة الموحَّدة ذاتِ المنطق الاصطلاحي القاموسي للكلمة أو الحروف.

(3) اختار المؤلف، لقراءته كلَّ عملٍ، هيكليةً واضحةً موحَّدة: التدرُّج بتلخيصه سرِّاً سياقياً، ثم قراءته مسرحياً، ثم تقييمه مضمونياً أبعاداً وتقنيةً.

من حيث المضمون:

(1) بحُبِّ كثيرٍ قَسَّرَ مفيد مسوح كلَّ مسرحيةٍ كما يقسِّرُ العاشقُ وردةً من حبيبته فيختار بثلاثتها بحنان، بثلثة بثلثة، وبحنان شفةً شفةً، وبحنوُّ ورقةً ورقةً، حتى إذا تعرَّت الوردة من أوراقها (ويكون أضواءً على عطرها ذرةً ذرةً بحُبِّ وإعجاب) عاد فضمَّها جميعاً الى جمعةٍ كَفَّه، ودَرَّها في فضاء المدى الوفي كي ينثرَ أرجاءها في الأثير حاملاً نكهة الإبداع الرحباني الذي عرفه الناس طوال أكثر من نصف قرن (منذ نهاية الأربعينات) على الأثير الإذاعي والمسرحي والتلفزيوني.

(2) وضعَ مفيد مسوح في هذا السُّفرَ الدقيق – عبر دراسته الوفيّة الوافية – مادةً غنيّةً للدارسين بعد اليوم في أكثر من حقل:

أ) المسرح: تناول تقنية الأخوين رحباني المسرحية في رسم بياني واضح لكل عمل على حدة.

ب) الشعر: لم يتوقف عند الشعرية (الموهبة) الرحبانية، ولا عند الشعرية (التقنية الشعرية) الرحبانية، لكنه أبرزَ ما في قصائدهما من جمالاتٍ وذائقةٍ فنية.

ج) الموسيقى: لا يدّعي أنه خبير موسيقي، لكنه قرأ الفواصل الموسيقية والمقاطع اللحنية في وظيفيّةٍ لهما ربطت بين النص واللوحات الغنائية والموسيقية.

د) الفولكلور: بيّن ما قطفه الأخوان رحباني من الفولكلور التراثي التقليدي، وما جدّاه في هذا الإرث اللبناني المشتول منوعاً مغايراً بين منطقة وأخرى في لبنان.

ه) الغناء: أبرز ما لصوت فيروز من وقع عبقرٍ في قلوب المتلقين قبل أسماعهم، إضافةً الى أصواتٍ رئيسةٍ أخرى (وديع الصافي، صباح، نصري شمس الدين،...) في شقع الأعمال الرحبانية عمارةً لبنانيةً جميلةً غير عادية.

و) التراكيب التأليفية: أشار الى النسيج التألفي لدى عاصي ومنصور الرحباني في تقديم نصهما شعرياً ومسرحياً وتركيباً سيناريئياً ذا نهكةٍ رحبانيةٍ خاصةٍ تركت بصماتها على جيل كامل من الشعراء والملحنين والمسرحيين.

3) عرف المؤلف كيف يُضوّئ على الخصائص التأليفية الرحبانية بإبراز دورهما في إيجاد "عالمٍ رحباني" خاص، وُلدت منه شخصيات وكراتكيرات تعمّمت ("راجح" للمخرّب المقنّع، "هوئو" للمخرّب النائب، "فاتك" للحاكم المتسلط، "غيبون" للحاكم المتهور، "عطر الليل" لوردة الرسالة الوطنية،...) كما وُلدت منه فُرى وضيع افتراضيةً مثاليةً أفلاطونية تعمّمت هي أيضاً ("كفرحالا"، "ميس الريم"، "جبال الصوّان"، "سيلينا"،...)، فيكون خلق شعباً رحبانياً كاملاً ووطناً رحبانياً متكاملًا.

4) سحب المؤلف لحظة الإبداع الرحباني من مسارها في الزمن (جرّدّها من سحابة الصوت العابرة الهاربة) وأوقفها برهةً ليتأنّى في رصدها ومعابنتها وتَمليها وتكبيرها مجهرياً لإبراز جمالاتها بكل خصيصيةٍ مفصّلة، فيبقى النص خالداً بنسيجه التألفي بعد عبور الصوت، وهنا الأهمية المزدوجة الخطورة في النص المغنّى: منه ما يسقط إذا تعرّى من اللحن والصوت، ومنه (كالنص الرحباني) ما لا يفقد إبداعيته الشعرية والنصية (النثرية أو المسرحية) إذا وصل للمتلقّي عارياً من اللحن والصوت.

5) هذا البحث المتأنّي، إطاراً وشكلاً ومضموناً، ما كان يُمكن خروجه بهذه الكتابة الأنيقة والدقيقة لولا جهد المؤلف، أمام الأعمال المسرحية الرحبانية الكاملة، في القراءة وإعادة القراءة، وفي الاستماع وإعادة الاستماع، بكل ما في ذلك من مراحل مطاطةٍ في صرفٍ وقتٍ طويلٍ وجهدٍ مُضنٍ وتسجيل أفكارٍ وملاحظاتٍ، سبقت جميعها مرحلة الكتابة والسردي والتأليف.

* * *

وبعد...

لا أريد أن أطيل فأفسدَ على القارئ متعة اكتشاف البحث "المسوحى".

حسبيّ منه اعترافي بخجلي أمام ضخامة عمله الذي حقّق لي حلماً ما استطعتُ تحقيقه بالشكل الذي نقّده فيه مفيد مسوح.

وحسبيّ أنني تمثّعتُ باكتشاف النص الرحباني، من جديد، فوق ما كنتُ اكتشفه، أنا المدّعي أنني أعرفه بالتفصيل لمتابعتي إياه منذ سنواتٍ طويلة.

وحسب مفيد مسوح أنه قال جديداً جميلاً كثيراً بعدَ ما كان صدرَ قبله، وبه مهّدَ لجديدٍ سيقال بعده عن هذا التراث الرحباني الخالد الذي سيكتنّبُ عنه الكثير أيضاً، ولو ان عمره لم يتجاوز بعدُ نصف قرن، لأنه تراث كامل متكامل الى حدّ ما يسمح به التراث من اكتمالٍ مرحليّ في زمنه وتموّجه.

وحسبُك أنت، عند قراءتك الأضواء الجديدة في هذا السّفر، متعتك في الرحلة الجميلة مع هذا الإرث الرحباني العظيم الذي، بنصّه هنا بين يديك، أثبتَ حضوره بعلبكاً خالدهً من بعلبكات لبنان.

هنري زغيب